بقلم حضرة الفنى عبد المسيح زهر

من الثابت الاكيد ان الانسان ظهر على وجه الارض آخرَ الخلائق الحيّة . ولكن متى يا ترى كان ظهوره ، وفي اي عصر برز الى عالم الوجود ؟ ان الجواب على هذا السؤال لم يفض اليه الى الآن كاشف ، ولم يُمط عنه الحجاب احد من العلماء ، بالرغم من الجد والجهد الذي بذلوه ؛ ولعله يبقى مكنوناً الى منتهى العالم . اذ ان العلم ما استطاع ، ولربما لن يستطيع ابداً ان يفكّ مشكلاً كهذا اعتقد من ذنب الضب . فاذن هذه المعضلة ما زالت في ليل من الشك مدلهم ، لم يسطع عليها بعد اشعة الظهور . ومع ذلك احببنا تلخيص اقوال العلماء ، في هذا المقال ، لما ينجم للقارئ عنها من الفوائد .

ان العلماء ولاسيما المتجرّدون لدرس احوال الحياة ، يعتقدون ظهور الحياة اولاً في المياه ، ثم في البرّ ، وبعد ذلك في سماء الارض . غير ان اصحاب المذهب القائل بتوحيد اصل الاشياء (monisme) يزعمون ان ظهور الحياة حدث في اول الامر اتفاقاً في قلب المياه ، بصفة خلية لا هيئة ولا شكل لها . ثم ان ذلك الحيّ الاول اخذ يتكمّل شيئاً فشيئاً حتى استطاع ، بعد كرور الدهور الطويلة ، الانتقال من سلسلة النبات الى سلسلة الحيوان . ولكن هؤلاء الموحّدون لم يثبتوا قولهم من طريق البرهان ، ولا ايّدوه بالادلة المقنعة ، بل اعرضوا عن العلم الاختباري الذي شهدت بصحته التجارب ، واعتمدوا على نتائج لا يتمثل فيها شبه الحق ، ولا تثبت على النظر ، اذ انه قبل اختبارات العلامة پاستور كان يظن ان الحياة تتولد في بعض الاحوال بشروط معينة ،

كتولّد جراثيم الامراض من تلقاء نفسها ، في الدم مثلاً او في البول او في غيرهما . الّا ان هذا الرجل ، فريد زمانه ، قد ابكم خصومه بتجاربه العديدة ، وبيّن ان « كل حي يولد من حي مثله »

فاذن المأفون والسرف العقل وحده يقول بان انواع الحيوان المتنوعة الموجودة في وقتنا الحاضر ، البالغة مئات الملايين — اذ ان انواع الحشرات تزيد على ٣٠٠،٠٠٠ — فضلاً عن الانواع التي عاشت في الاعصر الغابرة وهلكت ، ثم دُفنت تجاليدها في تراب الارض وتحجّرت بين سائات الصخور ، كلها توالدت وتكاثرت من تلك الخلية الاولى ؟ بل من يصدق ان تلك الخلية ولدت بطريقة النشوء النبات والحشرات والحيوانات العظام والماموث والفيل واصناف القردة حتى اعضاء جسمنا ؟

على ان سلسلة ذوات الاثداء الشاملة الانسان والقردة تمتدّ الى زمان عريق في القدم ، وقد ظهرت آثارها لاول مرّة في اوائل العصر الثالث بين سافات صخور طبقات الارض المتكوّنة من رسوب المواد ، وفوقها قامت ارض العصر الثالث . ونمت هذه السلسلة وتكاثرت ، وتشعبت ، وتعدّدت ، وانقرض بعض انواعها قبل ابتداء العصر الرابع ، ولكن بالرغم من كرور الدهور قد طال بقاء بعض هذه الانواع الى ايامنا ، وان كانت الآن آخذة في التلاشي والانقراض . اما الانواع التي ظهرت قبل الانسان ، وعاشت في السلسلة الاولى ، وما زالت تعيش معنا ، كالقردة على اختلاف انواعها ، ولاسيما الخالية من الاذناب ، القريبة من هيئتها وشكلها الى الآدميين ، مثل الشمبنزي والاورانغ اوتانغ والغرلى ، فان بعضها وُجد في العصر الثالث ، ولربما سبقها نوع او انواع اصغر تسلسلت هذه منها .

فاذن الراجح في الرأي ان ظهور الانسان كان في اوائل العصر الرابع ، لان العلماء بالرغم من المساعي التي بذلوها لم يستطيعوا اقامة الدليل على وجوده في العصر الثالث ، اذ ان آثار الصناعة البشرية في اوربا لم تظهر الّا في اواسط العصر الرابع . اما ما اكتُشف في البلاد الاخرى فلم تتفق الاراء على صحة

نسبته الى زمان سابق ، لان البراهين التي دعم بها طائفة اقوالهم لم تثبت عند المحنة والتمحيص.

فوالحالة هذه ، ماذا يبين لنا على وجه التقريب زمان ظهور الانسان ؟ والا يمكن التوصل الى معرفته بطريقة الرجم والتخمين ؟

كثير يظنون ان الكتاب يصرّح بهذه المسئلة ، ولكنهم مخطئون . لان ايدي النسّاخ اوقعت فيه اختلافات وخصوصاً في عدد السنين واعمار الاباء . فحسب النسخة العبرانية قد مرّ اربعة الاف سنة بين آدم والمسيح ، وحسب السبعينية ٥٤٠٠ ، وحسب كتاب تراجم الشهداء الروماني نحو ٥٢٠٠ . فمن الوجهة العلمية لا يمكن الاعتماد على الكتاب في هذه النقطة ، لان الكاتب المقدّس اقتصر على سرد الحوادث بصور وتشابيه ، وكتب بلغة بشرية لاناس قليلي العلم قصدَ ان يطبع في عقولهم بعض الحقائق الجوهرية ، مثل وجود اله قدير كامل خالق السماء والارض ، معتنٍ بخلائقه ، مثيب الابرار ومعاقب الاشرار ، ويبين لهم شرف الانسان من حيث مشابهته لله ، وحرّيته التي هي اساس المسؤولية ، ودخول الموت الى العالم بانسان واحد ، والوعد بمخلص . ولما اراد الدلالة على تلك الاعصر الطويلة العهد ، ما رأى كلمة ادلَّ على كل طور من اطوارها من كلمة « يوم ».

فاذا قال العلماء بمضيّ زمان طويل اي ١٠ الاف سنة ، او ٢٠ ، او ٣٠ الف على ظهور الانسان فليس في قولهم ما يضادّ الكتاب وتعليم الكنيسة ، لانها ما قطعت قط بهذه المسئلة ولا يهمها امرها كثيراً.

ثمّ ان التاريخ عاجز ايضاً عن حلّ هذه المشكلة ، اذ انه يذكر شعوباً وجدت قبلنا بنحو اربعة او خمسة الاف سنة ، وبلغت اقصى غاية من التمدن والحضارة كالكلدانيين والمصريين مثلاً . فتاريخ المصريين يرقى الى الملك مِنِس الاول الذي عاش في الالف الثالث ، او على الكثير في الالف الخامس قبل المسيح ، والتاريخ الاشوري يقف عند الالف الخامس ايضاً . فاذن ما من وسيلة ادلّ على تبيين اصل الانسان من علم طبقات الارض حيث ترك الانسان ، قبل ابتداء التاريخ ، آثاراً ناطقة بوجوده.

فقيد الدين والعلم والوطن

الاب لوسيان كاتن اليسوعي

١٨٥١ – ١٩٢٩

ماذا يقول علم طبقات الارض

ان العلماء الناظرين في طبقات الارض يذهبون الى وجود الانسان في العصر الرابع الممتدّ الى وقتنا الحاضر . على ان الارضين كانت اذ ذاك مختلفة كل الاختلاف عنها في الاعصر السابقة ، لتأثير العوامل الخارجية فيها ، اعني العوامل الجويّة . فضلًا عن ان سقوط الامطار الغزيرة اثّر في هبوط الحرارة ، وذلك لخلوّ الهواء عن الحامض الكربوني . فاذن سقوط تلك الامطار سبّب تساقط الثاوج ، فنشأ عنها جليد انتشر وعمّ في اول العصر الرابع ، فحمل حيوان المنطقة الشمالية الى الجلاء والرحيل الى المناطق المعتدلة . وكان ايضاً من نتائج تلك الامطار وجريان المياه جرفُ التقن الى السهول والاماكن المنخفضة ، وهكذا تكوّنت الاراضي الصالحة للحراثة والزراعة .

وفي آخر العصر الثالث هبّت جبال النار في اوڤرني (Auvergne) من سباتها الطويل ، كما يشهد سلسلة جبال پويس (Puys) . وعلى اثر الانفجارات زاد الحامض الكربوني فارتفعت الحرارة وذاب الجليد ، وصارت حالة الجو شبيهة بالحالة الحاضرة . وفي الوقت عينه انقرضت انواع كثيرة من ذوات الاثداء ، كالماموت ودباب المغاور والايائل العظام والمغاتريوم والدنورنيس ، وظهرت خليقة جديدة تتسلط على الارض ، وهذه الخليقة هي الانسان . فاذن وجود الانسان كان غالباً في العصر الرابع ، ويدلّ عليه العظام البشرية التي اكتشفت في الاراضي الرابعة ، والادوات المصنوعة من ظرّان او حجارة مصقولة او من المعادن ، وهذا العصر يعرف بعصر النحاس والحديد وعنده يقف علم طبقات الارض ويبتدئ التاريخ . فالراجح انه قبل العصر الرابع ما كان للانسان وجود على وجه البسيطة[1] .

آثار الانسان

ان اهم الآثار الدالة على وجود الانسان الظرّان والعظام التي كان يصنع منها القلائد والنبال ، والاقراط والمشاقب ؛ وصور بعض الحيوان التي كان

---

١) عن كتاب «الماء» بتصرّف كثير .

ينقشها على عظام الحيل والوعل والرنة ؛ وبقايا صيده واطعمته التي خلفها في المغاور والكهوف التي اوى اليها في اول امره ؛ واثار النيران في حجارة الصوان ؛ والتماثيل التي صورها بالمغرة على جدران تلك المغاور . وبعد عصر الحجر ، اتى عصر النحاس ، ثم عصر الحديد . وقد قسم العلماء عصر الحجر الى ثلاثة اقسام : عصر الحجر المشظّى ، وعصر الحجر المنحوت ، وعصر الحجر المصقول .

على ان العظام البشرية لا وجود لها في العصر الثالث ؛ واقدم ما وُجد منها يرجع الى العصر الرابع ، وهو لحي اسفل وُجد في مَور (Mauer) قرب هدلبرغ (Heidelberg) سنة ١٩٠٧ ، على عمق ٢٤ مترًا ؛ وجمجمة عُثر عليها في (Piltdown) من اعمال سوسكس (Sussex) في انكلترة . وقد فحص الاستاذ سيفر (Siffre) احد اساتذة مدرسة جراحة الاسنان لحي مَور فقال : «ان الفرق بين اسنان لحي مَور واسنان القرد الاقرب (الى الانسان) كالفرق بين ضرس آكل العشب وناب الجوارح . » غير ان صاحب هذا اللحي بعيد عن الانسانية واقرب الى البهائم من الانسان النياندرتالي [1] (Néandertal) ، فهو منسوب على ما يظهر الى الانسان الشلّي [2] . اما الجمجمة فهي قريبة من احوال الاناسيّ . فيستدل انه كان في العصر الشلي العريق في القِدَم باوربة سلالتان من البشر مختلفتان . وقد وُجد في طبقات ارض (Piltdown) ، ما عدا الجمجمة ، فك اسفل وبعض الاسنان نسبها مرسلان بُول (Boule) الى الشبزي ؛ فيستدل من ذلك على ان الانسان والشبزي عاشا في وقت واحد . وظن آخرون غير ذلك ، وما زال الجدال قائمًا بين العلماء في هذا الشأن . والمعروف انه بعد الانسان الشلّي اتى النياندرتالي ، ولا يُعرف اكثر من هذا . حتى ان العلماء لم يتوصلوا الى معرفة استعمال الانسان الشلّي للنار ودفن الموتى . وبعد الانسان النياندرتالي اتى سلالتان اخريان ، وهما السلالة الغريلدية (Grimaldi) التي اتت الى اوربا من افريقية وكانت من الزنوج ، وسلالة اخرى تدعى (Cro-Magnon) وهي سلالة

---

١) نسبة الى قسم من وادي ديسّل في بروسية الرنانية .

٢) نسبة الى شِلّ (Chelles) ، دسكرة من اعمال مو على المارن حيث وجد آثار بشرية عريقة في القِدَم .

بيضاء جميلة الخلق تشبه سكان اوربة الحاليين. ولكن هاتين السلالتين لم تتفرعا من السلالة النياندرتالية التي انقرضت من عن آخرها ، بل اتتا من بلاد اخرى. وقد نسب العلماء انقراضها الى تغلب سلالات ارقى منها عليها. وهم متفقون على ان السلالتين الاخيرتين من نوع الانسان العاقل.

على ان سلالة الكرومانيون قد سكنت ايضاً الكهوف ، واستعملت الظرّان ، وعاجَ الماموت ، وقرون الرنة ، وعظام حيوانات اخرى ، وتقدّمت في الصناعة ، وتركت صوراً كثيرة وتماثيل على جدران المغاور وسقوفها ، ونقوشاً في الحجارة وقرون الرنة ، وتماثيل من الصلصال او الغَضَار للبيزون[1] وغيره من الحيوان . وكانت هذه السلالة ارقى عقلياً وادبياً من كثير من المتوحشين في عصرنا . وقد اكتشفوا في المدة الاخيرة في (Broken Hill) برودزية جمجمة قريبة الشبه الى جماجم السلالة النياندرتالية ، وجدوها بين عظام حيوانات تلك الارض ، وبانَ انها احدث من عظام السلالة التي عاشت في اوربة ، وانها مختلفة عن جماجم زنوج افريقية ، فاستنتج مرسلان بُول ان السلالة النياندرتالية بقيت في افريقية الجنوبية بعد انقراض اختها من اوربة.

عمر الانسان

لقد ذهب بعضهم الى قِدَم الانسان واَيدوا رايهم بما يوجد من الظرّان الشبيهة بالظرّان المشظّاة . غير ان زعمهم هذا لم يثبت عند المحنة والتمحيص ؛ اذ انه قد عُرف بالخبرة ان حجارة الصوان تتشظى من تلقاء نفسها ، بتأثير حرارة الشمس وبرودة الليل . وقد تحقق المسيو ارسلان (Arcelin) ذلك في قفار ليبية الحارّة وسهول برغونية المعتدلة ؛ والدكتور وتزسين (Wetzsein) ، والمركيز دي ناديلاك(Nadaillac) حوالي دمشق. قال ابسيوس: «متى جلس المرء صباحاً صامتاً في مكان قفر ، او مساء بعد غياب الشمس ، سمع حولهُ صلّة ناتجة

[1] نوع من البقر قلّ وجوده وهو نوعان : الاوركس (*Bos bonasus*) ما زال في ليتوانية والقوقاس عائشاً بالاجام ، والبيزون (*Bos americanus*) باقٍ ايضاً في كنتدة والولايات المتحدة تحميه الحكومة.

من تشظي حجارة الصوان المدلصة . » ثم ان المسيو دلفو (Delvaux) رأى مثل ذلك في محل كان على مقربة من رنيه (Renaix) في بلجيكة ، واليك شهادته : « لقد تعجبت من سماعي حساً ثم صلة تتزايد ، رايت بعدها شظايا الصوان تتطاير حولي من كل جهة ؛ ولما كنت وحدي حرت في امري واطبقت الدُفتر الذي كان في يدي ؛ وعلى الاثر لاحظت ان اشعة الشمس ، عند مجاوزتها القمة المقابلة ، تسامتُ الحجارة البارزة على حافات الحفرة ، ومها سخنت تشظت وقذفت القطع الى مسافة مترين واكثر . فاقمت اتمل هذا الحادث مدة نحو عشرين دقيقة . »

فاذن حجارة الصوان المتشظية لا تبرهن دائماً على ان الايدي البشرية هي التي شظتها ؛ ولا يصح الاعتماد عليها لتعيين عمر الانسان الذي ما زال من وراء العلم .

ان البعض ، استناداً على آراء فريق من علماء الالمان ، وما توصل اليه من الاكتشافات الحديثة ، بالغوا جداً في تعيين السنين التي مضت فجعلها جماعة مائة الف سنة ، وطائفة مئتي الف بل اربعمائة الف سنة ، ولكن اقوالهم خالية من الادلة .

غير ان الاب مورو (L'abbé Th. Moreux) بعد ان افاض في درس هذه المسئلة ، وتعمق في البحث عنها ، وعرض على قرائنه اراء العلماء ، وقف ولم يقطع فيها ؛ بل اقتصر على هذه النتائج فقال : « انه بالنظر الى ظهور الانسان على الارض تتفق الحوادث كلها في حالة العلم الحاضرة على الدلالة :

اولاً : ان لا اثر حتى الآن للانسان وصناعته في العصر الثالث

ثانياً : ان العظام البشرية الاولية الحقيقية التي عُثر عليها في بلادنا ولاسيما في جنوبي فرنسة ، يرتقي عهدها الى الطور الجليدي الاخير والطور الذي سبقه . فلا ريب اذن ان الانسان صبر على امتداد مدة الجليد الاخيرة التي هي على الارجح اقصر مدّاته .

ثالثاً : يصعب تحديد تاريخ ظهور الانسان وعمر الارض الحاوية آثاره . اما اعداد السنين التي ذكرها العلماء الكذبة فليست سوى مزاعم لا يثبتها برهان

قيّم ، ولا تؤيدها حجة قاطعة ، اذ ان كل شيء يدل على ان الاطوار الجليدية والاطوار السابقة لها لا تتجاوز بعض الوف السنين . اذن ان محاولة تحديد عدد معيّن ضرب من مجاوزة حدود العلم في الوقت الحاضر .»[1]

قال پول بروكا (Broca) : « ان الانسان الثلاثي ما زال في عتبة العلم .» فاذن اقوال العلماء تدل على ان ظهور الانسان كان في العصر الرابع ، وما من برهان يثبت وجوده قبل هذا العصر . وقد ذكر الاب مورو في كلامه عن عصر الزنة ان السنين التي مضت منذ تكوّن احدث اراضي العصر الثالث العليا (*Pliocène*) الى العصر الرابع الحالي تنحصر في بضع عشرات الوف من السنين[2].

. ! من المحقق ان سكان اوربة الشليين قد هاجروا من بلاد اخرى ، اي من آسية مهد البشرية . ولكن متى يا ترى وقعت هذه الهجرة ، وكم من الزمان بقوا في بلادهم قبل هجرتهم ، وكم من الزمان مرّ منذ وجودهم الى هجرتهم ؟ كل هذه الامور اسرار يقف امامها العلم صامتاً لا يجيب جواباً ، ولا يدري ماذا يقول .

الّا ان العالم بيير ترميه (Pierre Termier) العضو في مجمع العلوم ذهب الى ان عمر النوع البشري ٣٥ الف سنة ، او ٤٠ ، او ٥٠ ، او ربما اكثر[3].

ثم ان ابوين يسوعيين افرنسيين (PP. Teilhard de Chardin et Licent) اكتشفا ، سنة ١٩٢٣ في بلاد الصين بالاوردُس (Ordos) حيث ملتوى عظيم لنهر الهوانغ هو ، آثاراً يتصل عهدها الى عصر الظران القديم ؛ ولكنها لم يتوفقا الى وجود شيء من العظام البشرية . فلعدم وجود اثار دالة على امتداد عصر الجليد صعب على العلماء التفريق بين العصر الصيني الرابع والعصر الاوربي الرابع .

* * *

(١ *D'où venons-nous ? p. 106*

(٢ *Qui sommes-nous ? p. 82*

(٣ *La joie de connaître, p. 298*

آراء العلماء في نشأة الانسان وظهوره

ان اراء ثلاثةً يتمسك بها العلماء بالنظر الى الانسان وظهوره:

الرأي الاول وهو رأي اصحاب مذهب النشوء يزعم ان الانسان متسلسل من الخلائق الاولية القديمة ، وانه الاكمل فيها . اما تلك الخلائق فقد انقرضت ودثرت قبل ظهور الانسان العاقل ، ولجهلها التقدم لم تستطع تعريف الانسان الذي تسلسل منها. ثم جاء بعدها غيرها ولكن الانسان تعقبها وابادها . على ان الانسان وُلد من اكمل تلك الخلائق ، وحصل على نفس شبيهة بنفس الولد قادرة بالتدريج على فهم الكلي والدائم وغير المتناهي واشتهائها ، بل قادرة بعد النموّ على الشعور بانها حرّة مسؤولة عن افعالها . ويذهب الى ان اولئك البشر كانت اجسامهم شبيهة باجسامنا ، ولكن انفسهم كانت شبيهة بانفس الاولاد ، محتاجة الى اماطة الحجاب عنها ، والى معرفة نفسها ، والى النموّ ، قادرة بالتدريج على الكمال ؛ وقد ترقّوا وتقدّموا وتقسموا وتشعبوا الى سُلالات فمنها من توجه نحو النور فحصل فيهم شبه بالله ، ومنها من لزمتهم الامراض والفاقة لاجل سوء نصيبهم من الارض والهواء ، فتوقفوا عن التقدم ، وبقوا مقيمين بالظلام. فهذا الرأي يرفضه التقليد المسيحي لانه يعدّ هذا النشوء الى ما قبل ظهور الانسان العاقل ، وينسب النفس الى التقدم التدريجي ، ويجعل ابن آدم غير حر في اصله ، ولا مسؤول عن افعاله.

الرأي الثاني يقول بان الانسان الاول الذي ظهر على الارض مثل الانسان الحاضر ذو نفس نيرة صافية حرّة مسؤولة عن افعالها ، مخلوقة على صورة الله كمثاله. ولكن يذهب الى ان وجود هذا الانسان سبقه وجود خلائق اخرى شبيهة به الا انها اقل منه كمالًا ؛ فكأنهم انصاف بشر ، لهم بعض الادراك ، غير انهم ما كانوا احرارًا مسؤولين عن افعالهم . ومنهم اصحاب عصر الظران الذين لم يتسلسلوا من آدم ولا هم اخوتنا ، بل لا يصح ان ندعوهم بشرًا ، ووجودهم في الكون سر غامض. وحسب زعم اصحاب هذا الراي يرجع ظهور الانسان الى ٢٠ الف سنة فقط. ولكن يُعترض على قولهم بانه اذا كان اصحاب

عصر الظران ليسوا بشراً ، فكيف توصلوا الى قطع الحجارة وتشظيتها ، واستعمال النار ودفن الموتى ؟

الرأي الثالث يقول بان البشر كلهم منسولون من اب وام ادخلا بخصيتها الموت الى العالم ، وان اصحاب عصر الظران متسلسلون من هذين الابوين كالسلالات المتمدنة في عهدنا ، وان القول بوجود اناس قبل آدم غير ثابت ، وان قِدَم الانسان يرجع الى ٣٥ او ٥٠ الف سنة او اكثر[1] ، وان اصل البشر واحد ثم تشعبوا شعوباً كثيرة ، وان الشليين والنياندرتاليين هم من هذه الشعوب لم يسبق وجودهم وجودَ الانسان العاقل . ولكنهم انحطوا الى افق المتوحشين الحاليين ، فمن اجل تسفلهم ظهر فيهم بعض المشابهة للقردة ، مع انهم بشر مثلنا ، قد عرفوا النار ودفنوا موتاهم ، وانتشروا في المعمور ، ثم تباعدوا من وجه اخوانهم الذين لم يتسفلوا ، ولجأوا الى البلاد الباردة والبحار الغربية والجزائر غير الثابتة فساخت بهم وبادوا .

* * *

فالرأي الاول لا يسلم به المسيحي المتمسك بدينه المعتقد تنزيل الكتاب ؛ اما الرأيان الآخران فسيان في الصحة اذ ليس برهان فلسفي يرجح احدهما على الآخر ؛ والاقرب الى الحق الرأي الثالث . النتيجة ان طول المدة التي انقضت منذ ظهور الانسان وسقطته الى الفداء سرّ غامض لا يدرك ، كما ان الباقي من الزمان الى انقضاء العالم سر اغمض واغمض .

(١) Pierre Termier : *La joie de connaître*, p. 298

من اليانه

في زخرف القول تزيينٌ لباطله ، والحقُّ قد يعتريه سوء تعبير !
تقول : « هذا مُجاجُ النحل » تمدحه ، وان ذممتَ تقُلْ : « قيء الزنابير ! »
مدحٌ وذمٌّ وما غيَّرتَ من صفةٍ حسنُ البيان يُري الظلماء كالنور !